الأنثى والهيمنة الذكورية في رواية "الرواية المستحيلة " لغادة السمان، قراءة في ضوء النقد الثقافي.

د. عائشة لعبادلية، جامعة عباس لغرور خنشلة .الجزائر.

توزع الثقافة الأدوار وفق معايير نمطية محددة وثابتة، وبذلك تشكلت الصور النمطية للأنثى في تصور الذكر انطلاقا من المنظومة الثقافية السائدة، فتأسست العلاقة بينهما عبر التاريخ على التبعية والإخضاع بدلا من الندية والمساواة، فلم يكن بوسعها أن تعبر عن ذاتها وتثبت هويتها وتمارس وعيها بحرية، فانبنت الصلة بينهما على الهيمنة و التسلط، ووفقا لهذا التصور عانت الأنثى لزمن طويل من هيمنة الثقافة الذكورية بمعاييرها المجحفة في حقها كإنسانة، وعلى الرغم من ذلك حاولت الأنثى انطلاقا من وعيها بذاتها إعادة صياغة هويتها الأنثوية ،واستطاعت من خلاله أن تصنع خطابا مضادا للخطاب الذكوري.

وتعد روايات "غادة السمان" في مقدمة الكتابات التي عرّت واقع المرأة والرجل على حدّ سواء في المجتمعات العربية ومعاناتهما من المنظومة الثقافية السائدة. فإلى أي مدى نجح خطابها الروائي في تمثيل واقع الأنثى العربية في علاقتها بالسلطة الذكورية؟ وكيف تم تنميط الأنثى في روايتها الرواية المستحيلة.

توطئة

تصنّف معظم الثقافات البشرية التقليدية الأنثى في مرتبة أدنى من الذكر بحكم طبيعتها الناقصة، إذ تولّدت هذه الصورة النمطية من تصور خاطئ لمنظومة الأفكار الذهنية والقيم الأخلاقية و الدينية فتحولت إلى مسلمات مقدسة لدى الجنسين، راجت بفعل الخطابات المتنوعة التي تعمل على تكريسها بقصد أو بغير قصد " فمن خصائص الثقافة التقليدية تبجيل أسلافها و الثقة المفرطة بموروثاتها و إضفاء معاني القداسة على مجمل تصورات الإنسان للعالم و علاقاته بمن حوله، ومن ثم مجابهة سيرورات التغير في الأفكار و القيم والسلوكات بحدة، إذ تعد تنكرا لحقائق الماضي و خروجا عن الأصل الصحيح المعتبر قد يهدد هوية الجماعة ويربك معاني وجودها في الزمن و المكان." [1]

1. معجب الزهراني: مقاربات حوارية، دراسات، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص:155.

لذلك يصعب التخلص من الصور النمطية للمرأة، كونها مترسخة في الذاكرة الجماعية و مرتبطة بمنظومة ذهنية تجدّد آلياتها حفاظا على استمراريتها و مركزيتها، و تكرّس لتهميش المرأة و تبعيتها و تضييق حريتها واستبعادها فكريا و إبداعيا، لترتع المرأة في فضاء محدود رسمت معالمه سلفا الثقافة الذكورية، لذلك ترى الكاتبة "غادة السمان" أن الأنثى في المجتمع الذكوري " تولد بالنسبة إليهم في سن البلوغ و تموت في الأربعين، أي أن قيمتها لديهم تعادل ما تقدر على تقديمه من خدمات في الفراش أولا ثم تحال إلى المعاش أو الطبخ.. و المروّع تقبل المرأة لهذا الحسم من حصتها في الحياة . المجتمع يحسم عليها حوالي نصف عمرها و هي تتقبل ذلك راضية بل و تسهم في ذلك". [2] و يبدو أنّ واقع تهميش المرأة لم يكن في المجتمعات التقليدية فحسب، وإنما لا يزال مجسدا في أكثر المجتمعات تحضرا وانفتاحا شرقا وغربا مما أدى إلى تشيؤ المرأة و تهميشها و استلاب حقوقها الفكرية و الاجتماعية .

و تعدّ روايات "غادة السمان" ثورة على القيم الثقافية و الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي و التي أدت إلى إقصاء الأنثى واختزال دورها في حدود ضيقة " لقد رأت غادة السمان و عانت من استلاب حرية المرأة و وضعيتها الدونية في المجتمع الشرقي عامة و المجتمع العربي الاستبدادي البطريركي خاصة. و هذه المعاناة دفعتها منذ وعت الحياة إلى التمرد على الواقع القائم، و كسر القيود و سلاسل العبودية الموروثة منذ القدم، رافضة تشيؤ المرأة و سجنها داخل حدود جنسها و وظيفته البيولوجية المحددة في مثل هذا المجتمع بإشباع رغبات الرجل الغرائزية و بإنجاب الذرية فقط."[3]

لذلك كرّست "غادة السمان" مجالا واسعا من نتاجها الفكري و الأدبي و أعمالها الروائية لقضايا المرأة لاسيما وهي تكتب بحرية، بعيدا عن المرجعيات الثقافية السلطوية، مما يجعل عملها الروائي ينفتح أمام القارئ على كثير من مضمرات الواقع الاجتماعي و الثقافي للمرأة في المجتمع العربي الذكوري. و سنسعى عبر هذه القراءة في روايتها الرواية المستحيلة إلى التوغل داخل الخطابات الثقافية للنص الروائي بهدف تعرية الأنساق الثقافية المتحكمة إلى يومنا هذا في تهميش المرأة و استلاب حقوقها

2. غادة السمان: القبيلة تستجوب القتيلة. الأعمال غير الكاملة 12، منشورات غادة السمان، ط3، 2002، ص:151.

3. وفيق غريزي: الجنس في أدب غادة السمان، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص:6.

الاجتماعية و الفكرية و الإبداعية . فما هي أبعاد أيديولوجيا الذكورة و ما مدى تكريسها لهامشية الأنثى في الرواية المستحيلة ؟

1- أيديولوجيا الذكورة و العنف الناعم

تمارس الثقافة الذكورية إيديولوجيا خاصة لاستمرارها و تكريس مركزيتها في مقابل تهميش الأنثى ، إذ تكون حيل الثقافة في البداية أقرب إلى العنف الناعم اللامرئي الذي يهيئ الأنثى منذ نشأتها لتقبل مكانتها الدونية بطواعية والرضا بحدودها ،ويثير فيها استعدادا ذاتيا لتلقي مقولات الهيمنة الذكورية بصفة طبيعية لكنها في حقيقة الأمر أن هذه الإيديولوجيا قائمة على العنف الرمزي ،"فالقوة الرمزية هي شكل للسلطة تُمارس على الأجساد مباشرة خارج كل إكراه جسدي كما يفعل السحر ، لكن ذلك السحر لا يعمل إلا إذا استند إلى استعدادات مُودَعة ،كمحركات في أعمق أعماق الأجساد ،وإذا ما استطاعت تلك القوة أن تعمل مثل فصّال،أي مع إنفاق للطاقة ضعيف للغاية ،فلأنها لم تفعل شيئا سوى إثارة الاستعدادات التي أودعها عمل التلقين والاستدماج في الذين أو اللواتي بفعل ذاك أعطوه قوة ."[4]

يبدو أن الاستعداد الذاتي للأنثى لتقبّل مركزية الذكر والتي تساهم في تهميش ذاتها في المجتمع، فتُنقص من قيمتها وتكرس دونيتها هي الاستعدادات ذاتها التي تبثها الثقافة في فكر الذكر عن طريق التلقين في بيئته الاجتماعية الأولى وهي الأسرة الأبوية فيؤمن بفوقيته ومركزيته بشكل طبيعي، لذلك فنظرية "بيار بورديو" عن "العنف الرمزي" - التي أشرنا إلى معناها سابقا- تفيدنا في تفكيك الخطابات الثقافية داخل النص الروائي لغادة السمان والذي يتضمن صورا مختلفة لتهميش الأنثى و استبعادها من طرف الذكر الذي توجه سلوكاته الثقافة الموروثة والمندسة في اللاوعي الجمعي .

شكلت المرأة في المجتمع العربي إذن منذ العصر الجاهلي أزمة في الأسرة، فوجودها يجلب العار للقبيلة، وقد ازدادت صورة المرأة تشوها في المجتمعات العربية الحديثة على الرغم من القوانين الدينية و الاجتماعية التي توضح حقوقها و قيمتها الإنسانية، إلا أنّ بعض الأسر لازالت خاضعة لأفكار كرّستها الثقافة وجعلت من الأنثى تسلّم بدونيتها وتبعيتها دون وعي منها، تتجسد هذه الرؤية في رواية "الرواية المستحيلة" من خلال خطاب "بوران" إذ تحمل الطفلة "زين" ذات الخمسة سنوات ذنبا لم ترتكبه وتعدّها

4. بيار بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1،2009، ص: 67.

المسؤولة عن موت والدتها كونها ولدت أنثى مما جعل والدتها "هند" ترغب في الإنجاب مرة أخرى و إرضاء زوجها - على الرغم من كون صحتها لا تسمح بولادة ثانية - فتحمل بتوأم ذكر، و تموت بعد ولادتهما بساعات، فتتحمل الطفلة "زين" مسؤوولية موتها انطلاقا مما رسخته شخصية بوران " قالت بوران: "زين" هي السبب في موت أمها لا البومة وحدها، فلو كانت صبيا لما اضطررت "هند" لإعادة الكرة و لما ماتت.."[5] يدعم خطاب "بوران" المركزية الذكورية لما فيه من قابلية لتكريس دونية الأنثى وتمركز الذكر دون وعي منها ،إذ تضمن الثقافة الذكورية استمرارية إيديولوجيتها من خلال تلقين الأفكار، وبالتالي تكريسها في اللاوعي الجمعي بطواعية دون اللجوء إلى العنف ،وهكذا فكرت "بوران " عند ولادة الطفلة "زين" فحملتها مسؤولية وفاة والدتها لأنها أنثى ،وكان يفترض أن تدعم الأنثى ذاتها ولكنها أنشأت خطابا يكرس تبعيتها دون وعي منها .

تعدّ ولادة "أنثى" في الأسرة العربية إذن نذير شؤم مثلها مثل طائر البوم، فيتمّ إقصاء وجودها و إلغاء حقوقها في فضاء ذكوري يقدّس الذّكر و يدين الأنثى، مما يجعلها خاضعة بدورها للأنساق الثقافية و الاجتماعية التي كرست تهميشها و هضم حقوقها عبر التاريخ، و تصنيفها في مرتبة أدنى من الذكر قبل خروجها إلى الحياة، ذلك ما يجسده الحوار الذي دار بين "بوران" و "أم موفق" حول "فلك" "ضحكتا و قالت بوران: إنها حامل حتى حلقها، و أخي "عبد الفتاح" سيجن إذا لم تنجب شقيقا لـ"لؤي" بعدما جاءت له "بخزامى" و"حميدة" و "فضيلة" و "مطيعة". صبي واحد على أربع بنات قليل. إنّه مصمّم على أن تظل "فلك" تحمل كل سنة حتى صبيا آخر على الأقل.

- بنت أم صبي غير مهم. المهم أن تنتهي الولادة بخلاص و خلقة مثل الناس.
- كلنا نقول ذلك، لكننا في قرارة نفوسنا نفضل إنجاب الصبيان.
- البنت أفضل لأمها و أكثر حنانا ..
- صحيح و لكن ولادتها غصة و عقصة ..."[6]

تفضل الأنثى في قرارة نفسها إنجاب الذكر استجابة لقوانين ثقافية مندسة في لاوعيها ،واستعدادا ذاتيا لتقبل دونيتها وفوقية الذكر في الأسرة ، و هكذا يبدأ تهميشها- في المجتمعات البطريركية - بالتمييز بين الذكر و الأنثى منذ معرفة جنس

5 . غادة السمان: الرواية المستحيلة. – فسيفساء دمشقية- منشورات غادة السمان، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص: 41.

6. المصدر نفسه، ص:45.

الجنين و هو في رحم أمه. فإذا كان ذكرا قابلته العائلة بالفرحة و الافتخار، و إن كانت بنتا قابلتها بالحزن و الخزي، فإذا ما خرجت للحياة فُرضت عليها سلوكات وقوانين تقيد حريتها منذ طفولتها، وذلك ما توضحه الخطابات الثقافية الصادرة عن "بوران" و هي تلقن البنات دروس التميز – الذي يضمر التهميش وفقا لإيديولوجيا النسق الذكوري - منذ الصغر " تتعالى أصوات لعب الأولاد مما ينبغي في نظر بوران. تستدعي البنات و تزجرهن واحدة تلو الأخرى: تنفسي من فمك فقط و لا تلهثي. عيب كلي النعّومة هنا. لا تأكلي أمام الصبيان. أنزلي يديك عن وركك حين تقفين و عن خصرك حين تتحدثين. لا ترقصي في المشي عيب. و أنت لماذا تغمين بعينيك هكذا؟ عيب. و أنت يا زين لماذا تنحشرين في لعب الصبيان. عيب عيب. انكسر خاطر البنات فجلسن بلا حراك".[7]

و هكذا تكبر الأنثى ولديها استعدادا ذاتيا لتقبل فكرة الدونية والتبعية ، و يكبر معها الفارق بينها وبين الذكر في تعاليه و حريته وسلطته، بينما تدرك أنها مقيدة و مهمشة و تحاسب على كل صغيرة أو كبيرة و ترضى بذلك طوعا و استسلاما – و تبقى حالات التمرد استثنائية طبعا – ذلك أن للثقافة الذكورية قوة رمزية و " هي شكل للسلطة تمارس على الأجساد مباشرة خارج كل إكراه جسدي كما يفعل السحر، لكن ذلك السحر لا يعمل إلا إذا استند إلى استعدادات مودعة،كمحرمات في أعمق أعماق الأجساد. (...) و إنتاج الاستعدادات الدائمة التي تثيرها و توقظها؛ هو عمل تحويلي يزداد قوة بقدر ما يمارس، في الأساس بأسلوب لا مرئي و مخاتل، عبر الاستئناس غير المحسوس بعالم فيزيائي مُبَنْين رمزيا، و عبر التجربة المبكرة و المطولة للتفاعلات المسكونة ببنى الهيمنة".[8] فالثقافة الذكورية لها حيلها الخاصة لتمرير خطاباتها و تكريسها و ترسيخ قوانينها التي جعلت من الأنثى ضد ذاتها.

و تسأل "زين" الفتاة "فيحاء" - في سياق آخر- عن معنى أن تصبح حرة " أجابت فيحاء ضاحكة: حرة يعني صبي. و أطلقت قهقهتها العالية في الشارع فالتفتت بوران صوبها مستنكرة".[9] تتلقى الطفلة "زين" إذن خطابا يضمر نسقا ثقافيا ذكوريا يحتكر الحرية على الرجل دون المرأة، وإن كان خطاب "فيحاء" خطابا ساخرا صدر عن وعي بمقولات الثقافة الذكورية كونها الشخصية الأنثوية الوحيدة المتحررة من قيودها في

7. المصدر نفسه، ص:47.

8. بيار بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة:سلمان قعفراني، ص:66.

9. غادة السمان: الرواية المستحيلة، ص:128.

الرواية ، ولكنه يعكس حقيقة الواقع الذي عاشته والتعاليم التي تلقتها في طفولتها قبل أن تتلقاها "زين" وعلى الرغم من كون هذا الخطاب لا يتناسب مع درجة الوعي لدى طفلة في عمر "زين" إلا أنه يمثل حقيقة البيت الكبير والثقافة السائدة فيه .فإذا ما صيغ مفهوم الحرية على هذا النحو، نشأت الأنثى على إيديولوجيا النظام السلطوي ليسهل التعاطي مع وضعها و التعايش معه حين تكبر، و تورّث الأجيال القادمة جينات الإذعان و الجمود والقهر.

لذلك يتم تقبّل الأنثى في أغلب الأحيان لصورتها النمطية التي كرستها الثقافة الذكورية، فتتسرب إلى اللاوعي الجمعي كحالة طبيعية تعيشها المرأة برضا و قناعة. وهكذا تخدم المرأة المفاهيم الذكورية، إن لم تكن قادرة على إنتاج خطاب مضاد للسلطة الذكورية .

2- تمرد الأنثى و الخطاب المضاد:

تتمرّد الأنثى على الثقافة السائدة التي شكلت صورتها النمطية انطلاقا من رفضها لواقعها، ذلك الرفض الذي يتولّد عن جملة الضّوابط الاجتماعية التي تمارس فعل الرقابة على حريتها و توجه سلوكها في إطار لا يخرج عن نسق السلطة الذكورية و إيديولوجيتها و نسق المنظومة الاجتماعية ككل، فتسعى كأنثى إلى الهروب من واقعها و التحرر من الأغلال الآسرة التي كبلت حريتها.

تتهيأ الأنثى للتمرد على التمييز الجندري الذي يجعلها في مرتبة أقل من الذكر من خلال إصدارها لخطابات مضادة تعبر عن رفضها للتبعية و الرضوخ للذكر، و هو ما يتجسّد في ردة فعل "فيحاء "على طلب عمّها " ناداها عمّها عبد الفتاح قائلا: يافيحاء أعدّي لي فنجان قهوة، و صعق الجميع حين أجابت: لماذا لا تعدّه بنفسك؟ ألا ترى أنني أقرأ و أستعدّ للامتحانات؟ زجرتها عمتها بوران: عيب أن تردّي هكذا على عمك الكبير.كان ثمة إجماع على أن المرحومة هند أفسدت فيحاء بتشجيعها على العلم و مساعدتها رغما عن الجميع باستثناء أمجد و شقيقها مأمون حتى أنها تقدمت بطلب للانتساب إلى دار المعلمات حيث تقبض راتبا كالرجال ..تنهدت بوران:يا لطيف من هذا الزمان، لكنها تحسرت على نفسها (منذ صغري و أنا أتمنى لو كنت طبيبة ،ياحسرة ..ليتني فعلت مثل فيحاء .) ".[10] يعد الرّفض الأنثوي لتلبية حاجات الذكر كما جاء في الخطاب الروائي

10. المصدر نفسه، ص50.

بداية تشكل الوعي الأنثوي بما ينتظر المرأة في المجتمع الذكوري. و تمثل شخصية "فيحاء" باعتبارها فتاة متعلمة وطموحة شكلا من أشكال الوعي الأنثوي بقيمة الذات و بالآخر الذكوري، لذلك فهي تملك دائما الخطاب المضاد للخطاب للسلطة الذكورية .

يضمر الجزء الأخير من الخطاب فعل إقصاء المرأة من حق التعليم من طرف السلطة الذكورية و اختزال دورها في مسؤولية البيت و الإنجاب و تربية الأولاد كما حدث لـ"بوران"التي لم تتلق العلم و سلّمت بواقعها كقدر محتوم، ولكن احتجاجها جاء في صيغة تحسّر، و كان سرا بينها و بين نفسها، عكس الفتاة المتعلمة "فيحاء" التي تملك المعرفة و بالتالي امتلاكها السلطة و القوة لمواجهة واقعها وصياغة خطابها وفق خصوصية نابعة من الإيمان بفعاليتها في المجتمع إلى جانب الذكر . لذلك تسعى إيديولوجيا الذكورة إلى منع المرأة من التعليم كي لا ترتفع درجة وعيها فيصعب السيطرة عليها و التحكم فيها، فالذات لا تدرك ذاتها إلا بالمعرفة، و لا تدرك الآخر إلا بإدراكها لذاتها .

وتصدر "فيحاء" خطابا مضادا في موضع آخر من الرواية معبرة عن موقفها من حب الرجل للمرأة وتمييزها بين الحب والغيرة "– فقالت الخالة أم موفق بنبرة دفاعية لا شيء أبدا.كنت أسألها عن أحوال بهيجة ..و علمت أنها بخير و زوجها مازال يحبها.

- يحبها ؟ إنّه فقط يغار عليها. - سألتها بوران : ما الفرق ؟
- زوج عمتي بهيجة يغار عليها و لا يحبها، إنّه فقط يحب امتلاكها كسلعة. قالت الخالة أم موفق ببراءة: ما معنى سلعة يا بعدي ؟
- قالت بوران بضيق : فلسفة من كتب الست فيحاء".[11]

تبدو شخصية "فيحاء" واعية بقوانين الثقافة الذكورية ،فالغيرة لا تتضمن بالضرورة الحب، و لكنها قد تضمر نسقا ذكوريا يرتبط بحب التملك و السيطرة على الأنثى و استضعافها .و تضيف "فيحاء" ردّا على "بوران" التي تعدّ مثالا للخضوع لسلطة النسق الذكوري و الالتزام بتعاليمه فتختزل مهام المرأة في أعمال البيت " أكدت بوران على أهمية دورها: سأصنع من زين ست بيت شامية محترمة يأتيها العرسان من مصر و لبنان. أجابت فيحاء مداعبة عمتها: لم يعد إتقان أعمال البيت

11. المصدر نفسه، ص:57.

مهما جدّا هذه الأيام و الدليل أنك مازلت أرملة ..."[12] يعدّ خطاب "فيحاء " خطابا مضادا يضمر التمرد و خرق النسق الذكوري الذي يختزل دور المرأة في أعمال البيت.

و تعلن "زين" في موضع آخر كامرأة مبدعة- على الرغم من صغر سنها - ثورتها على صنف الرجال الذين ينظرون للمرأة نظرة محدودة فقد "كان دريد كثير التعلّق بزين و الكراهية لها في آن، أما لؤي فصارحها لحظة وصوله من دمشق إلى الريحانية بقلقه من كتابتها إلى بريد القراء و نشرهم لاسمها و صورتها، فردّت قائلة: اسم الأسرة يوسخه في الوحل من يعقد الصفقات المشبوهة ليثري لا من يخط جرح قلبه.

- هل تقصدين عملي الناجح ؟

- لا أقصد شخصا معينا. أقصد القول إنّ الوحل يلطخ الرجال أكثر من النساء، و أنت لست مؤهلا لمحاكمتي لمجرّد أنك صبي... هل تظن أنّ بوسعك ربطي من عنقي بطوق كلب و جرّي وراءك لمجرّد أنني بنت ؟ "[13] يعد الرفض الأنثوي لتلبية حاجات الذكر كما جاء في الخطاب الروائي بداية تشكل الوعي الأنثوي بما ينتظر المرأة في المجتمع الذكوري وتمثل شخصية "فيحاء" باعتبارها فتاة متعلمة و طموحة شكلا من أشكال الوعي الأنثوي بالذات و بالآخر الذكوري لذلك فهي تملك دائما الخطاب المضاد للخطاب الذكوري السلطوي.

تقوم الإيديولوجية الذكورية إذن- انطلاقا من الخطاب السابق - على إستراتيجية خاصة من أهم خططها منع المرأة من التعليم كي لا ترتفع درجة وعيها فيصعب السيطرة عليها و التحكم فيها، فالذات لا تدرك ذاتها إلا بالمعرفة و لاتدرك الآخر إلا بإدراكها لذاتها، لذلك يتم تقبّل الأنثى في أغلب الأحيان لصورتها النمطية التي كرّسها النسق الذكوري، فتتسرب إلى اللاوعي الجمعي كحالة طبيعية تعيشها المرأة برضا و قناعة. و هكذا تخدم المرأة المفاهيم الذكورية إن لم تكن قادرة على إنتاج خطاب مضاد للسلطة الذكورية.

3- الأنثى بين قانون الصمت والرغبة في التحرر

كما تضمر "الرواية المستحيلة " الأنساق السلطوية الذكورية المتحكمة في حرية الأنثى، إذ يتجسد ذلك في نظرة "العم حاجور " المتشددة للمرأة "حين التقى بأمجد و

12. المصدر نفسه،.ص:121.

13. المصدر نفسه، ص:481.

ابنته زين "لقد كان يتوجس شرا من تلك الزيارة خوفا عليها من محاضرات العم حاجور، الرجل المتزمت الذي سأله في زيارته الأخيرة كم سن ابنته، و لماذا لم يحجبها منذ سن السابعة ؟ أمجد يجد تزمته مرضا و بحاجة إلى علاج و إلا فلماذا يرفض تزويج بناته الخمس بالحلال، و يغار عليهن من نسمة الهواء و يمنعهن من مغادرة البيت حتى إلى الحقل خوفا عليهن من لقاء أحد العمال أو أي ذكر. و يحبسهن في الصندوق منعا للمعاصي".[14] يعدّ العم "حاجور" نموذج الذكر المتسلط و المستبد الذي يقتل حرية بناته و يحبسهن في البيت و يرفض زواجهن بالحلال، و ممارسة ثقافة الإكراه على ارتداء الحجاب أو المكوث في البيت الذي يعدّ في نظره الفضاء المكاني الذي يتلاءم مع طبيعة المرأة كأنثى، فيصون عفتها و يحفظ شرفه كأب. و هكذا يسوّغ لنفسه تبرير ممارساته السلطوية على بناته دون أدنى تفكير في كرامة المرأة و حقوقها كإنسان فعال بفكرها و بطبيعتها المختلفة عن الرجل، إذ لا يولّد الاختلاف البيولوجي الطبيعي تصنيفا لذات دونية تابعة و آخر فوقي مهيمن، و لكنه الاختلاف الذي يفضي إلى التكامل بحرية دون إقصاء أحد منهما للآخر أو محاولة إلغائه عكس الاختلاف الذي رسخته الأنساق الثقافية في الذهنية العربية و القائم على الرغبة في إنشاء علاقة صراع و تنافر بين الرجل و المرأة.

و يمثل"أمجد الخيال" الرجل المثقف الذي يقع في صراع بين منح زين حريتها تماما كحرية الصبي لأنه تمنى يوم ميلادها لو كانت الذكر "زين العابدين" بدلا من الأنثى "زين" أو "زنوبيا"، و لكنه أحس بالذنب اتجاه والدتها التي ماتت ضحية محاولة إنجاب الذكر و عرّضت حياتها للخطر، فاعتراه الندم الذي جعله يربي ابنته "زين" تربية الذكر الحر في اختيار حياته ليس لأنه كان يتمناها ذكرا فحسب بل ردا لاعتبار زوجته الأديبة التي قمع صوتها في أعماقها.

و على الرغم من ذلك فلغة "العم حاجور" المتزمتة توقظ الحس الذكوري السلطوي برؤيته النمطية للمرأة في ذهن "أمجد" كرجل شرقي، فينتابه فجأة الصراع الداخلي اتجاه الطفلة "زين" بين ما يريدها أن تكون عليه و بين ما سيواجهه أمام المجتمع لو تصرفت فعلا بحرية كصبي. " لا يريد أمجد أن يعرضها لكلمة جارحة منه لمجرد أنها ولدت بنتا،كان يعي جيدا موقع ابنته من عالمها الذي لم تعه بعد و يكاد يسقط في الحيرة بين وقت و آخر..هل يفعل بها حين تكبر ما فعله حاجور ببناته، (...) لا لقد بالغ حاجور و بلغ حد المرض و الجنون .. و لكن ألا يقطن في أعماقي أنا أيضا كما في

14. المصدر نفسه، ص 211.

أعماق كل رجل شرقي مجنون صغير ؟ ألا يقلقني أنا أيضا ذلك اليوم الذي ينهد فيه صدر زين و تحيض و أصير مضطرا لمواجهة الأشياء، أنا الذي يهرب منها الآن بحجة أنها طفلة.. إنها لن تبقى طفلة إلى الأبد، فما الذي سأفعله بها و أنا الذي أربيها الآن كصبي و ماذا لو كبرت و أصرّت على التصرف كصبي؟."[15] تختلج أمجد الخيال مشاعر متناقضة فهو " يريدها حرة و قوية و لا يريدها أن تؤذي نفسها.. و لكن كيف؟"[16]

لا ينفك النسق السلطوي الذكوري يوقظ هواجس "أمجد" والد "زين" فيخاف عليها حينا و يخشى المقدس الاجتماعي- الذي يمارس دور الرقابة للنقد و الشك في سلوكات الأفراد - حينا آخر و يريد أن يمنحها حريتها في كل الحالات، فلا يريد حرمانها من تحقيق طموحاتها التي عجزت والدتها عن تحقيقها في أجواء المجتمع الدمشقي المحافظ و المتمسك بالموروث الثقافي الذكوري الذي يقف حائلا دون تمتع المرأة بحقوقها الإنسانية.

يبدو موقف والد "زين" في هذه الحالة تحدّ كبير و محاولة جريئة للانتصار على الرجل الشرقي بداخله هذه المحاولة التي فشلت في المرة الأولى مع والدتها، فغادرت الحياة في صمت دون تحقيق ما كانت ترجوه، لكنه مع" زين" ينحاز إلى صف المرأة كإنسانة ثم كأنثى،أم أنّ هذه الأنثى الصغيرة المغامرة برغبتها الجامحة و توقها إلى الحرية و الاكتشاف هو ما فرض على والدها الانحياز إليها و إنصافها ؟ فهي تستحسن رؤية الناس إليها كصبي بعد حلق شعرها " هكذا تحية سريعة متقشفة نكست وراءها نظراتها خجلا تبعها بتحية إلى زين مداعبا "مرحبا يا شيخ الشباب". وسارعت زين لتجيب بصوت جربت أن يكون أجشا "مرحبا وعليكم و السلام" وفرحت لأنّه ظنها من جديد صبيّا".[17]

إن رغبة "زين" في أن تكون صبيا ليس موقفا ضد أنوثتها و لا حبا في تقليد الذكر و لكنّه ردّة فعل تنم ٍ عن وعي أنثوي في محاولة للتحرر من صورتها النمطية كما تعرفت عليها إثر تلقّيها لتعاليم العمّة "بوران" وتحسيسها بالنقص و التمييز بينها و بين ذكور العائلة، فأرادت أن تثبت أنها ."زين" حقّا و ليست زين العابدين كما تمنى والدها أثناء ولادتها ذات يوم؛ و لكن وفقا للصورة التي تراها و وفقا لم بثّه فيها والدها من إرادة و عزيمة وقوة تاركا لها متسعا من الحرية. أرادت ذلك و بالطريقة ذاتها التي يثبت بها الذكر تفوقه أثبتت "زين "وجودها كأنثى فاعلة و ذلك بعد أن سعت إلى اكتشاف ذاتها شيئا

15. المصدر نفسه، ص:211.

16. المصدر نفسه، ص:211 .

17. المصدر نفسه، ص:214.

فشيئا لتكتشف من خلالها الآخر الذكوري، والعالم الخارجي و بقية الذوات حولها، لتحظى بمكانة خاصة على نحو يجعلها في مرتبة الذكر.

أرادت "زين" كأنثى صغيرة أن تثبت لوالدها و لهم جميعا أنها لا تختلف عن الذكر الذي يقدسونه و يمجدونه،كونها قادرة على تحمل المسؤولية و لا يعيبها شيء تماما كما الذكر. وقد أثبتت ذلك عدّة مرات من خلال كسب الرهان مع مجموعة من صبيان العائلة و خارجها بقدرتها على السباحة في النهر، فقطعت شوطا كبيرا في التحدي "وخرج عبد الهادي من الماء و الطين يقطر منه و قد التفت الطحالب على ساقيه وقال لزين : ماذا قررت يا زين العابدين ؟ و مضى خاطر في ذهنها لثانية:إذا كان هو قد فعلها و لم يمت، فلماذا لا أقدر أنا أيضا ؟ "لأنني بنت". و لسعتها تلك الإجابة التي جاءت من أعماقها هي و لم يقلها لها هذه المرة أحد و قفزت إلى الماء بكامل ثيابها في لحظة جموح ورفض من لحظاتها المجنونة النادرة، وقد مدّت يديها أمام رأسها كأي سباح كبير وغطست وسبحت تحت الماء دون أن تجرؤ على فتح عينيها ذعرا، و وصلت حتى إلى الطرف الآخر للبركة، وخرجت قبل أن يصطدم رأسها بالجدار وسمعت صوت الصبيان يصفقون لزين العابدين "القبضاي"..."[18]

تجاوزت بطلة الرواية الطفلة" زين" مقولات حريم البيت الكبير عن الأنثى وقيودها، فهي التي تعاب على كل شيء و عاجزة عما يقدر عليه الذكر، و عليها الامتثال و الطاعة، ولو كان على حساب حريتها الشخصية، و غيرها من المقولات التي كانت تتلقاها، فتبثّ في أي أنثى الإحساس بالنقص منذ صغرها مما يولّد لديها استجابة طبيعية لأفكار الثقافة السائدة حين تكبر، ولكن "زين" تحدّت إحساس الاستجابة لتعاليم نسوة البيت الكبير و تمردت تمردا إيجابيا جعلها تكتشف ذاتها من خلال استخدام المحرك الثاني الذي كان والدها يحثّها على تشغيله كلما ضعفت و هو محرك الإرادة فاكتشفت بذلك قدراتها و مهاراتها – و هي من بين المعايير التي تمنح الحرية للذكر – محاولة ردّ الاعتبار لحريتها المستلبة و أنوثتها المقموعة.

كما يعبّر صمت الأنثى عن الكبت و الخضوع لنسق السلطة الذكورية، حيث تتعجب الطفلة "زين" من حالة الصمت التي تعتري نسوة البيت الكبير و هنّ كثيرات خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالحديث عن والدتها كامرأة متعلمة، مثقفة و أديبة "منذ طفولتها و هي تسمع إشارات غامضة عن أمها توحي بالإعجاب المطلق حتى الانبهار كما هي

18. المصدر نفسه، ص:221.

حال فيحاء مثلا، أو بعدم الرضا حتى حدود الكراهية في اللحظات النادرة للخروج عن الصمت كما هي حال عمتها بوران .. الصمت هو الكلمة ..لا تدري زين من الذي يفرض قانون الصمت، لكن معظم النساء حولها حارسات للصمت و البكارات بوران، ماوية، فلك، قمر، خزامى، بهيجة، و حتى ماما ديب، بل و بعض صديقات أمها اللواتي تحدس حبهن للغائبة في صمتهن .."[19] إنّ حالة الصمت التي تريد "زين" معرفة سرّها هي استجابة لقانون فرضته السلطة الذكورية على نسوة البيت طوعا، و أما التزام الصمت اتجاه والدتها كمثقفة و كأديبة، فهو امتناع بالنسبة إليهن عن الخوض في المحظور، باعتبار والدتها تمردت على قوانين الصمت المفروضة عليهن محاوِلة إثبات ذاتها و كسر حلقة الصمت التي تلفهنّ.

4 - **الأنثى ومأزق البوح**

ينبثق نسق الكبت من تقاليد الثقافة السائدة التي تحرّم فعل البوح كي لا يُفضَح المسكوت عنه، فالبوح بالحب محظور بالنسبة للمرأة و مباح بالنسبة للرجل- إن لم أقل أنّ المبادرة بالاعتراف حكرا على الرجال- ويقتصر ذلك على الفئة المتحررة، إذ الأصل في الثقافة السائدة هو الكبت، يتضح ذلك من خلال شخصية "أمجد الخيّال" الذي لم يعبّر عن مشاعره لزوجته التي أفنى عمره في حبها و بقي وفيا لها حتى بعد وفاتها، على الرغم من كونه مثقفا و منفتحا على الثقافة الغربية بحكم دراسته في جامعة أجنبية " لكنني كوكب منطفئ، لقد أنفقت قلبي في حب هند، و بعدما ماتت اكتشفت أنني نسيت أن أقول لها ذلك جيدا، كنت أظن أنّ ثمة وقتا، لا وقت لشيء إلا للموت، و لم أعد أصلح لشيء إلاّ للذكريات".[20] فإذا ما تعلق الكبت بمشاعر الحب لا يناسب الأنثى فحسب بل يناسب الذكر أيضا و هو سمة من سمات القوة و الصلابة عند الرجل حتى لا تفضح مشاعره و تنفلت عواطفه و يفقد هيبته و يفقد معها التحكم و السيطرة على الذات الأنثوية، إذ من المفترض أن لا تبوح الأنثى للرجل بمشاعرها خارج مؤسسة الزواج، و قد لا تعترف بحبها حتى لزوجها كي لا تخدش حياءها؛ و ما كل ذلك إلا وفاءً منها لِمَا تلقّته من ثقافة ذكورية فتمتثل في صمت و خجل أمام الرجل و تظهر في صورة المستضعفة و هو في صورة القوي الذي لا يقهر ، تلك إيديولوجيا الثقافة الذكورية السائدة حين يتحول الكبت قوة وانتصارا و ويستحيل البوح ضعفا وانهزاما .

19. المصدر نفسه، ص:434 .

20. المصدر نفسه، ص:296.

يضمر نسق البوح في الرواية المستحيلة - بعدّه من المحظورات التي تكرس دونية الأنثى - النسق الذكوري الأصلي الذي يوجه سلوك الأنثى والذكر على حدّ سواء، لاسيما و إن كان هذا البوح اعترافا بالحب و بالمشاعر الأنثوية اتجاه الآخر الذكوري؛ إذ يعدّ الاعتراف بالحب في المجتمعات الشرقية فعل متمرد و آثم يهين المرأة و ينقص من قيمتها و عفتها، لذلك حملت المرأة- خاصة- وزر مشاعر الحب بصمت عبر التاريخ .

و يصل في أغلب الحالات حدّ العقوبة كما حدث لـ"بدرية "حين رفضت الزواج برجل ثري بحجة أنها تحب رجلا آخر، و لكنها تلقت عقابا شديدا من والدتها لاعترافها بحب شاعر لا يملك عملا، فكان أن وضعت جمرة ملتهبة و أحرقت لسانها الذي نطق بحبه " كل واحد منا و همه أكبر منه. هل سمعت بالهم الجديد لجارتنا درية أم بدرية ؟ انتعشت أم موفق و سألت بشراهة ما هو؟- مسكينة مصيبتها كبيرة بابنتها بدرية ؟ رفضت الزواج من ابن الفصيح ابن العيلة و العز و المال و الجاه وقالت إنها تحب غيره و تريد الزواج من عصفور طيار لا شغل له يقول عن نفسه إنّه شاعر يا بعدي. وضعت لها أمها جمرة مشتعلة في فمها أحرقت لسانها لأنها قالت أحبه وأفهمتها أن هذه الكلمة عيب - هذه هي التربية و الأصول".[21]

ترتبط مسألة البوح ارتباطا جدليا بالحرية، و حرية المرأة في المجتمع العربي حرية مجازية مهما تبين لها أنها قد كسرت القيود التي كبلتها عبر تاريخ طويل، و يقدّم الخطاب الروائي فعل العقاب الذي كان نتيجة لخرق نسق الحدود و ذلك للحد من حرية البوح بمشاعر الحب التي تعدّ من المحظورات التي تلحق العار بالفتاة، و تسيء إلى سمعتها. و العقاب في هذه الحالة هو احتجاج على رفض الرجل الثري أيضا إذ يعدّ المال و الثراء من معايير الفحولة في المجتمع العربي، وهو يكرس بصفة غير مباشرة الخضوع للسلطة الذكورية، حيث يمكنها إخضاع المرأة للزواج برجل لا ترغب فيه.

ويمكن القول، إنّ الرواية المستحيلة للروائية "غادة السمان" كشفت إلى حدّ بعيد عن المضمر النسقي الأنثوي والذكوري على حد سواء في المجتمعات العربية في محاولة لبناء فكر جديد ينتقد قبحيات الثقافة السائدة وازدواجيتها التي كرست فوقية الذكر و دونية الأنثى، فأصبح نسق الدونية لصيقا بالأنثى ليجعلها موضع خطيئة في حالات تمردها و تحررها أو في حالات خضوعها وصمتها، ممّا يوجه سلوكها في الحالتين لصالح إيديولوجيا الذكورة.

21. المصدر نفسه، ص:54.